(٤٤) السلف الصالح والأولياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: قال الطحاوي رحمه الله: وَأَنَّ العَشرَةَ الَّذينَ سَمَّاهُم رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَبشَّرَهُم بِالجَنَّةِ، نَشْهَدُ لَهُم بِالجَنَّةِ، عَلَى مَا شَهِدَ لَهُم رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وَقَوْلُهُ الحقُّ، وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وعُثْمَانُ، وَعَليٌّ، وَطَلْحَة، والزُّبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَسَعِيدٌ، وَعَبْدُ الرَّحمنِ بن عَوْفٍ، وأبُو عُبَيْدةَ بنُ الجَرَّاحِ وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَجْمَعِين.

الشرح:

تقدم القول في أصحاب رسول الله ﷺ وبيان حقوقهم ووجوب محبتهم وموالاتهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلها الله تعالى إياهم على مراتبهم وتفاضلهم، وذلك أن أصحاب محمد ﷺ لا يستوون، كما قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [الحديد: ١٠] ، وأثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار، وقدّم ذكر المهاجرين على الأنصار في غير ما موضع، كما أن أهل بدر لهم مزية خاصة، حتى قال النبي ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة: (**إن الله تعالى قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**)، وهذا يدل على ثبوتها حكماً وإن نُسخت تلاوة، كما أن من أصحاب محمد ﷺ من أكرمهم الله تعالى ببيعة الرضوان، وقال: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } [الفتح: ١٨] ، وقال النبي ﷺ: (**لا يدخل النار من بايع تحت الشجرة**)، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فهذه بعض جوانب التفضيل العام بين أصحاب النبي ﷺ، لكن ثم تفضيل خاص، وهو أن النبي ﷺ قدّم وفضلهم بعضهم، كما تقدم من ذكر الخلفاء الأربعة، وأتبع الشيخ ذلك بذكر بقية العشرة المبشرين بالجنة، فقد نص النبي ﷺ بالنص الصريح، وخطب على المنبر فقال: (**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة عامر بن الجراح في الجنة**)، فهؤلاء هم العشرة المبشرين الذين شهد لهم النبي ﷺ، فأهل السنة والجماعة يشهدون لمن شهد له النبي ﷺ، وأدخلهم في ذلك هؤلاء العشرة، وجميعهم من المهاجرين، وذلك أن الهجرة أفضل من النصرة كما تقديم في تفضيل الله لهم، وفي ذكرهم في سورة الحشر حينما ابتدأ فقال: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } [الحشر: ٨] ، ثم قال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الحشر: ٩] ، فأما الخلفاء الأربعة فقد علمنا منزلتهم وفضلهم وتقديم الله ورسوله لهم، ثم يليهم بقية العشرة، فمنهم طلحة والزبير حواري رسول الله ﷺ، وسعد وهو سعد بن أبي وقاص الذي قال عنه النبي ﷺ: (**ارم، فداك أبي**

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

وأمي) يوم أحد، فلم يُفد النبي ﷺ ويجمع بأبيه وأمه إلا لسعد، وكذلك سعيد بن زيد وهو من السابقين الأولين ممن تقدم إسلامه، وعلّم وعلِم، ولكنه مات متقدماً، ومنهم عبد الرحمن بن عوف الذي بذل ماله في سبيل الله، وكان يجهز الجيوش والسرايا، ودعا له النبي ﷺ بالبركة، وأبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة، هكذا لقبه النبيﷺ، وكان عمر يجله، ولو كان حياً لاستخلفه، فهؤلاء سيرهم عطرة، وينبغي لكل مؤمن أن يقرأ في سيرهم العطرة كما دونهم أهل الإسلام في كتب الصحابة كالإصابة في معرفة الصحابة، وأُسد الغابة، وكذلك أيضاً ما كتبه الذهبي في سير أعلام النبلاء، فإنه قدمهم بالذكر، وكذلك أيضاً ما كتبه الحافظ ابن كثير مؤرخ الإسلام وفقيه المؤرخين في البداية والنهاية، وغيرهم ممن كتب في سيرهم وممن أفرد لهم بالتأليف.

فمحبتهم دين وإيمان، ومعرفة أحوالهم وجهادهم وبلائهم في ذات الله مما يثبت قلب المؤمن ويعلقه بهذا الدين، ويورثه محبة أصحاب رسول الله ﷺ.

وهناك من بشرهم النبي ﷺ بالجنة سوى هؤلاء، كما شهد النبي ﷺ لثابت بن قيس بن شماس وقال: **(بل تعيش سعيداً، وتموت حميداً، وتدخل الجنة)**، وكذلك أيضاً عبد الله بن سلام، مؤمن أهل الكتاب، فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة، وكذلك بلال، أخبر النبيﷺ أنه يسمع خشف نعليه في الجنة، وآخرون شهد لهم النبي ﷺ، فنحن نشهد لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ولا يجوز أن نشهد لسواهم، ولكننا نرجوا للمحسنين ونخاف على المسيئين، كما أننا أيضاً لا نقطع لمعين بالنار، إلا ما جاءت النصوص بالقطع له أو استيجابه بالنار كأبي لهب وغيره.

فهذا هو حق أصحاب رسول الله ﷺ، ثم عقب الشيخ على ذلك بقوله: ومَن أحسن...

قال المؤلف: وَمَنْ أَحْسَنَ القَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ، وَذُرِّيَّاتِهِ المقدسينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ؛ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ.

وذلك أنه لا يطعن في أصحاب رسول الله ﷺ أو في أهل بيته أو ذريته إلا زنديق يريد هدم الإسلام، ذلك أن هذه الصفوة من هذه الأمة هم حملة الدين، فمن طعن فيهم فإنما أراد هدم الدين ونسخ الواسطة التي بيننا وبين رسول الله ﷺ، وللروافض اللئام من هذا النصيب الأوفر، فإنهم يجرحون الصحابة ولا يعدلونهم إلا نفراً يسيراً يعدونهم عدداً، كعمار بن ياسر وبعض الصحابة الذين حفظوا لهم مواقف معينة مع علي، ومن سواهم فإنهم يزعمون أنهم قد كفروا وارتدوا، وعليهم من الله ما يستحقون من هذه الوصمة التي هم أحق بها.

قال: وأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ: وكذلك أزواج النبي ﷺ لهن حق خاص، فهن أمهات المؤمنين كما قال الله تعالى: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } [الأحزاب: ٦] ، وهن أمهات في الحرمة لا في المحرمية، لا يجوز نكاحهن، ولكن هذا لا يبيح أيضاً الخلوة بهن ولا السفر بهن كما يسافر المحرم بموليته، لكن لهن قدرهن في الاحترام لا في المحرمية، وقد

نكح النبي ﷺ مدة حياته إحدى عشرة امرأة، وتوفي عن تسع منهن، هن أمهات المؤمنين، وأفضلهن خديجة وعائشة، وللعلماء مفاضلة بين خديجة وعائشة تصل إلى حد التقارب ذلك أن خديجة رضي الله عنها هي أول من أسلم من الناس، وكانت له ردءًا ومثبتاً ومستراح فؤاده، فكان النبي ﷺ يأوي إليها، وكانت ترفده بمالها ونفسها، وقصتها مشهورة معروفة، كما أنها أم أشهر أولاده، بل أم جميع أولاده سوى إبراهيم، فجعل الله له منها ذرية، وبشرها بالجنة كما قال: (**إن الله يبشرك ببيت في الجنة من قصب[1]، لا صخب فيه ولا نصب**)، وقد توفيت في آخر العهد المكي، وحزن عليها النبي ﷺ حزناً شديداً، وكان يبرد لذكراها ويتأثر، حتى إنه لما استأذنت عليه في المدينة هالة بنت خويلد أدركته رقة ﷺ، لأنه ذكر باستئذانها استئذان خديجة.

وكذلك عائشة أم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق، فقد كانت أحب نسائه ﷺ إليه، وكان ﷺ يحبها ويأنس بها ولم يتزوج بكراً سواها، وكانت تحفظ سنته، فقد آتاها الله تبارك وتعالى فطنة وذكاء، فروت عن رسول الله ﷺ ما لم يرو غيرها، وقال ﷺ: (**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**): (**الثريد**): الذي هو خبز ولحم قد جمع المكونات الغذائية التامة، ففضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وكذلك بقية نسائه ﷺ، يطول المقام بذكر مناقبهن وفضلهن.

قال: وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ: إشارة إلى أن من نال منهن أو قذفهن فإنه يبوء بالخسران والكفران، وقد أنزل الله تعالى آيات بينات في مطلع سورة النور تكفر من نال من أزواج النبي ﷺ.

قال: وَذُرِّيَّاتِهِ المقدسينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ: وذرية النبي ﷺ منحصرة في نسل فاطمة، وهم بنو علي: الحسن والحسين ونسلهما من الحسنيين أو الحسينين، فتجب مودتهم وموالاتهم ومحبتهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ، فهم أهل البيت، **وآل بيت رسول الله ﷺ أشمل من آل علي، فإنه يشمل آل علي وآل جعفر وآل العباس وآل الحارث بن عبد المطلب وآل عقيل**، هذه البطون الخمسة كلهم آل النبي ﷺ، وضابطهم: أنهم لا تحل لهم صدقة، تكرمة لهم، ولذلك يُعطون من الفيء ولا يُعطون من أوساخ الناس، فلهم منزلة خاصة، فلأزواج النبي ﷺ منزلة، ولآل رسول الله ﷺ منزلة، ولا ريب أن أزواج النبي ﷺ من أهل بيته، فإن الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب لما أنزل آيات يخاطب فيها نساء النبي ﷺ: {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ} [الأحزاب: ٣٠] ماذا قال في آخرها؟ قال: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب: ٣٣]: فهذا يدل على أنهن يدخلن دخولاً أكيداً في هذا اللفظ، والروافض يتجاهلون هذا النص الصريح، ولا يدخلون أزواج النبي ﷺ مع صراحة الآية في ذلك، وقوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣] ، فطهرهن الله عز وجل من كل

[1] وهو اللؤلؤ المجوف.

دنس، كما نزه ذريتهن من كل رجس، فمن تجمع ذلك فقد برئ من النفاق، ومن تخوض في عرضهن أو نال من أصحاب رسول الله ﷺ ففيه شعبة من نفاق.

قال رحمه الله: وعُلماءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ، وَمَنْ بعْدَهُم مِنَ التَّابِعِينَ –أَهْلُ الخَيْرِ والأَثَرِ، وأَهْلُ الفِقْهِ والنَّظَرِ– لا يُذكَرُونَ إلاَّ بِالجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرُهُم بِسُوءٍ فَهُوَ عَلى غَيْرِ السَّبِيلِ.

الشرح: هذا من تتمة مباحث العقيدة، وهو ما يتعلق بحق سلف الأمة على خلفها، ذلك أن الله تعالى جعل أمة محمد وشجية واحدة، وجعل آخرهم يستغفر لأولهم ويدعو له، كما قال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: ١٠].

قال: وعُلماءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ: وإذا قيل: السلف. فالمراد بهم ابتداء القرون الفاضلة الثلاثة الأولى، لقول النبي ﷺ: (**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)، والقرن ما يقارب المائة عام، فالذين كانوا في تلك الأزمنة الشريفة يقال لهم: السلف. ويقال لزمنهم: القرون الفاضلة. بدلالة هذا الحديث.

قال: وعُلماءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ، وَمَنْ بعْدَهُم مِنَ التَّابِعِينَ: فإنهم يأخذون حكمهم.

قال: أَهْلُ الخَيْرِ والأَثَرِ، وأَهْلُ الفِقْهِ والنَّظَرِ. : يشير إلى أنهم على دربين: منهم من غلب عليه الخير والعبادة والنسك، ومنهم من غلب عليهم العلم والفقه، وكل هذه من شعب الإيمان ومن حكمة الرحمن أن وزع الله تعالى الفضائل والكمالات على أهل الإسلام، فبعضهم ينبغ في العلم والفقه والرواية والدراية، ومنهم من ينبغ في العمل والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلٌ من هذه الأطباق يكون عنده الحد المطلوب من الخصال الأخرى، لكن يمنّ الله تعالى عليه بنوع فضل وتميز في خصلة من الخصال، فمنهم أهل الخير والأثر ممن إذا ذُكروا ذُكر الله عز وجل، لما في سيرهم من الإخلاص التام لله تعالى ورقة القلوب والخشوع وتعظيم الرب سبحانه وتعالى والتعبد له وقطع الليل والنهار بالتقرب إليه بأنواع القربات، ومنهم المجاهدون في سبيل الله، الذين يبحثون عن الشهادة في كل ثغر ويطلبونها ويسعون في تحصيلها، ويقودون الناس إلى الجنة بالسلاسل، ولهم في هذا آثار حميدة وأخبار عجيبة، ومنهم أهل العلم والفقه، سواء ممن اشتغل بالرواية أو من اشتغل بالدراية، فقد ورد في الأثر: (**يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين**)، وأخبر النبي ﷺ بخبر عظيم يقول: (**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب، فشرب الناس منه وسقوا وزرعوا، وكان منها قيعان لا تُمسك ماء ولا تُنبت كلأ**): هؤلاء هم أصناف الناس حيال ما بعث الله به محمداً ﷺ من الهدى والعلم، فهم كأنواع التربة والأرض، فمن الأراضي ما تبصره العين ويشاهده الإنسان في الآفاق طائفة طيبة، إذا نزل عليها ماء السماء قبلت ذلك الماء،

فأنبتت الكلأ والعشب الكثير واستحالت جنة تهتز خضرة، فهؤلاء يقابلهم في هذه الأمة أهل العلم والفقه والدراية، فإنهم قد بلغوا العلم عن رسول الله ﷺ، ففقهوه وعلموه ونزلوه على المسائل الحادثة، لذلك نفعوا وانتفعوا، وصنف ثان كان حبهم أن تلقوا العلم، فهم كالأجادب، وهي الحياض الواسعة التي يجتمع فيها ماء السماء، لكنها ليس من شأنها الإنبات، لكنها تحفظ الماء، فيأتي الناس فيشربون منه ويستقون ويزرعون، فهم قد نفعوا غيرهم بإيصال الماء إليهم، ويقابل هؤلاء أهل الرواية الذين لا يشتغلون بالفقه، وإنما كان همهم سماع الحديث وتحمله وأداؤه، فهم ينقلون العلم إلى من بعدهم، كما قال النبي ﷺ: (**نضر الله امرأ سمع منا مقالة فوعاها، فأداها كما سمعها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع**)، ولهذا قال ﷺ: (**بلغوا عني ولو آية**)، وهؤلاء كثير، حين تُتلى الأسانيد يضيق بعض الناس زرعاً ويقول: اختصر الإسناد، اختصر. مع أن هؤلاء المذكورين لهم فضل على الأمة بروايتهم وتحملهم وحفظهم لهذه الآثار، رحمهم الله وجزاهم عن أمة محمد خير الجزاء، هؤلاء هم المحدثون الذين قال الإمام أحمد: إن لم يكونوا – الطائفة المنصورة– أهل الحديث فلا أدري من هم؟. رحمهم الله رحمة واسعة، وجزاهم عن أمة محمد خير الجزاء بما حفظوه من هذا العلم.

وبقيت ثالثة –عافانا الله وإياكم– لا تمسك ماء ولا تُنبت كلأ، وهم قوم لم يرفعوا رأساً ولم يهتموا به ولم يروا فيه مطلباً، لهذا قال النبيﷺ موزعاً هذه النتائج على هذه الأمثلة: (**فذلك مثل من نفعه الله بما بُعثت من الهدى والعلم فعلِم وعلَّم**): وهؤلاء هم الطائفة الطيبة، (**ومثل من لم يرفع بذلك رأساً**): في تقديري أن من لم يرفع بذلك رأساً يقابل الأجادب، وليس هذا ذماً لهم، وإنما المراد أنهم لم يجتهدوا ولم يصبحوا أئمة يرجع الناس إليهم في الفقه كمثل الإمام أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة والثوري، فتحفظ عنهم الفتاوى ويشار إليهم بالبنان، فهم لم يشتغلوا ولم يرتفع ذكرهم كما ارتفع للطائفة الأولى التي فقهت فعلمت وعلّمت، أما نصيب الطائفة الثالثة القيعان التي ينزل عليها الماء فينصب يمنة ويسرة قال: (**ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**): فالذي لم يقبل هدى الله هو الذي أعرض عن العلم، ولم يكن همه إلا الدنيا: (**إن الله يبغض كل جعظري جواظ، صخاب بالأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، جاهل بأمر دينه، عالم بأمر دنياه**): هذا موجود في الناس كثير، من لا يبالي بالعلم ولا يسعى لإصلاح قلبه ولا لإصلاح حاله وعمله، وإنما هو كالدابة يأكل ويشرب وينام ويستيقظ وينكح ثم يموت، انتهى، هذا... هذا جفاء، فعلى الإنسان أن يلتحق بالطائفة الأولى، فإن لم يدرك فالثانية، ولا يعدم عملاً صالحاً أو علماً نافعاً، فحق هؤلاء علينا أن نذكرهم بالجميل وأن نثني عليهم ونلهج بمناقبهم، ولهذا كان العلماء يصنفون في سير العلماء، كما ذكرنا آنفاً ما كتبه الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء، لا يجتمع لأمة ممن قبلنا من الأمم اليهود

والنصارى هذا العدد الهائل من الرجالات والأئمة والعلماء والمحدثين والفقهاء النساك العباد ما اجتمع في أمة محمد، رحمهم الله رحمة واسعة، فهذه الأمة آخرها يذكر أولها بخير، **ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.**

قال: لا يُذكَرُونَ إلاَّ بِالجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرُهُم بِسُوءٍ فَهُوَ عَلى غَيْرِ السَّبِيلِ: إي والله، من قصم ظهر هذه الأمة وانفصم عنها فهو على غير سبيل، لأنه ثم سبيل واحد للمؤمنين والمسلمين، وقد قال الله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥] ، وما أبدع ما رتل بعضهم حينما قال: لو قيل لليهود: من خير ملتكم؟ لقالوا: أصحاب موسى. ولو قيل للنصارى: من خير ملتكم؟ لقالوا: أصحاب عيسى. ولو قيل للرافضة: من شر ملتكم؟ لقالوا: أصحاب محمد.

فإذا كان هذا موقفهم من الصحابة فكيف بمن اتبع الصحابة، فإنهم يذمونهم ويسيئون إليهم وينقمون عليهم، أما هذه الأمة فإنها لم تزل –أعني أهل السنة والجماعة– يخدم بعضهم بعضاً ويثني بعضهم على بعض، ويذكر بعضهم مناقب بعض، وهذا حال المؤمنين.

ثم نبه الشيخ على مسألة مهمة لما ذكر حال العلماء والسلف والثناء عليهم، قال: وَلاَ نُفَضِّلُ أَحَداً مِنَ الأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، ونقولُ: نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الأَوْلِيَاءِ:

فهذا إشارة إلى مذهب زنادقة الاتحادية وغلاة الصوفية الذين يقولون بوحدة الوجود والحلول وغير ذلك من المذاهب الردية، فإن هؤلاء القوم تاقت نفوسهم إلى أمور لا يستحقونها، ورأوا أنهم يمكن أن يحصلوا المراتب العلى من النبوة والرسالة بالمجاهدة والرياضة، وأنّى لهم؟ ذلك أن النبوة والرسالة فضل الله يؤتيه من يشاء: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤] { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } [الحج: ٧٥] {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الزخرف: ٣١، ٣٢] ، فهؤلاء قوم تشبعوا بما لم يُعطوا، فصاروا كلابس ثوبي زور، وأرادوا أن يصلوا إلى مرتبة النبوة بالرياضة والمجاهدة، زعموا، ولكنهم حيل بينهم وبين ذلك، لأن ذلك فضل الله، قد ختم الله النبوة بمحمد ﷺ، { وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠] ، لأجل ذا ابتدعوا مرتبة الولاية، ولا شك أن الولاية ثابتة: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢] ، لكنهم خلعوا على مرتبة الولاية ما أخرجها عن حدها ومستواها، وزعموا أن الولي أفضل من النبي، والنبي أفضل من الرسول، قلبوا السلم رأساً على عقب، فلا شك أن الرسول أفضل من النبي، وقد ثبت التفريق بين الرسول والنبي، والنبي والرسول أفضل من الولي قطعاً، بل إن الولي

لا يُنسب إليهم كما قال الشيخ: ونقول: **نبي واحد أفضل من جميع الأولياء**. لكن هؤلاء الزنادقة أرادوا أن يحلوا أنفسهم محلاً رفيعاً تخيلوه وتوهموه، حتى قال ابن عربي[1] الطائي الأندلسي الصوفي الزنديق:

مقام النبـــوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

هكذا، والبرزخ هو الشيء بين الشيئين، فجعل الأعلى في الترتيب الولاية ثم النبوة ثم الرسالة، وله أيضاً أبيات قريبة من هذا المعنى، فلا شك أن هذا مذهب كفري، حتى أن ابن عربي زعم في فتوحاته الشيطانية، ويسميها: الفتوحات المكية، زعم أن حديث النبيﷺ الذي فيه: (**مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فبقي منه موضع لبنة، فجعل الناس يطيفون به ويقولون: ما أحسن هذا، لولا موضع هذه اللبنة، فأنا تلك اللبنة**)، فزعم –عليه من الله ما يستحق– أن موقعه في هذا البناء موضع لبنتين، إذ أن لبنة فضة ولبنة ذهب، وجعل حظ النبي ﷺ أنه لبنة فضة، وأنه هو لبنة ذهب، وهكذا مما توحيه إليهم الشياطين، ولهم في هذا من الشعر والنثر ما تقشعر له الأبدان، فلا أكفر منهم، أعني هؤلاء الاتحادية القائلين بوحدة الوجود، الزاعمين أن لأوليائهم مقامات رفيعة، وفي كل مذهب من هذه المذاهب الردية فيه أنواع هذه الادعاءات والمزاعم، يعني مثلاً التيجانية يزعمون أن صلاة الفاتح لما أُغلق وهي عبارة عن ثلاثة أسطر أو أربعة أسطر اصطنعوها، يزعمون أنها أفضل من القرآن ستة آلاف مرة، وخذ من هذه التخاريف والتهاويل والدعاوى العريضة شيئاً عجيباً، يتلاعبون بعقول العامة والجهلة والسذج، ويجرونهم معهم إلى الغواية والضلال، فنحن نقر بفضل الأولياء ونعتقد أن الولي حقاً كما وصف الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٢، ٦٣] ، وبالصبر واليقين تُنال الولاية في الدين: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة: ٢٤].

قال: وَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِم، وَصَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِم:

أهل السنة والجماعة يقرون بكرامات الأولياء، والكرامة أمر خارق للعادة يُجريه الله تعالى على يد عبد صالح، ويجمعها مع الآية أنها على خلاف العادة، خرق للعادة، وذلك أن ما أجراه الله تعالى على أيدي أنبيائه ورسله آيات، كما قال الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الإسراء: ١٠١] {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى} [طه: ٢٢] ، وهكذا، سمى الله تعالى هذه الأمور التي وقعت على خلاف ما اعتاده الناس آية، وقد سماه بعض المتأخرين معجزات، والأولى –كما هي طريقة السلف المتقدمين– تسميتها بما سماها الله تعالى به: آية، وأما ما أجراه الله تعالى على أيدي هؤلاء الصالحين فإنها تسمى كرامات، وفيها خرق للعادة، وهذا أمر ثابت ويؤمن به أهل السنة والجماعة، وقع للصالحين المتقدمين من الأمم السابقة، كما وقع مثلاً

[1] وهناك ابن العربي، وهو أحد العلماء، فالنكرة نكرة، والمعرفة معرفة.

لأصحاب الكهف، فإن إلقاء النوم عليهم ثلاثمائة وتسع سنين ثم إحياؤهم بعد ذلك كرامة لهم، وكذلك ما جرى لمريم من أنها حملت من غير زوج، وغير ذلك مما جرى عند المتقدمين، وأخبارهم تطول، كذلك في هذه الأمة، في أولها، وفي وسطها، وفي آخرها، أجرى الله الكرامات متنوعة، ولا تزال الكرامات باقية إلى يوم القيامة، على أن هذه **الكرامات تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: العلوم والمكاشفات.

القسم الثاني: القدرة والتأثيرات.

والعلوم والمكاشفات بمعنى أن يجلي الله تعالى لبعض أوليائه أموراً لا تُدرك بالوسائل المعتادة، ويمثل لهذا بما وقع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب حينما كان يخطب على المنبر، وكانت جيوش الإسلام تغزو في بلاد فارس، فجُلي له منظر رآه رأي العين وأن الفرس يلتفون على جند المسلمين الذي يقودهم رجل يقال له: سارية، فصاح عمر بأعلى صوته وهو على المنبر: يا سارية: الجبل. فسمعه سارية على بعد آلاف الأميال، واعتصم بالجبل ووقاه الله ومن معه من المسلمين.

ومن ذلك أن أبا بكر الصديق أخبر أن الذي في بطن امرأته غلام، فكان كذلك.

وبعضها يتعلق بالقدرة والتأثيرات، ومن ذلك ما جرى للعلاء بن الحضرمي كما حدث أبو هريرة أنهم لما أرادوا فتح البحرين حيل بينهم وبين عدوهم بالماء، فسرنا على الماء، وكنا يومئذ أربعة آلاف، فوالله ما ابتل لنا قدم ولا حافر ولا خف. فهذه من الكرامات التي جرت، وذلك أن العلاء نزل من جواده فصلى ركعتين ثم قال: يا عليم: يا حليم: يا عظيم: أجزنا. ووقعت هذه الكرامة.

ومن ذلك أيضاً ما وقع لعقبة بن نافع حينما أراد أن يبتني مدينة القيروان المعروفة في تونس، وكانت غابة مليئة بالسباع والحيات، فلما وقف على فم الغابة نادى بأعلى صوته: يا أيتها الوحوش: يا أيتها الحيات: نحن أصحاب محمد أتينا لنشر دينه، فخرجت الوحوش والحيات تحمل أولادها في أفواهها، وأخلت لهم المكان.

وغير ذلك من القصص التي يطول ذكرها.

ولا ريب أنه قد جرى في هذا الباب من الدعاوى العريضة عند المتصوفة ما هو كذب محض ودعاوى لا أصل لها، ومن قرأ في طبقات الشعراني أصابه الغثيان من هذه الدعاوى الفارغة من أقوام لا يستحون ولا يرعوون يغشون المحرمات ويشربون الخمور ويقعون في الزنا واللواط وغير ذلك، ويدعون أنهم أصحاب كرامات، فهذا يرد عليهم ولا يُقبل منهم، وإن جاء شيء خلاف ما اعتاده الناس فهو من فعل الشياطين، فهو مما تصنعه لهم الشياطين وتخدمهم به لإظهار باطلهم، وإلا فإن هذا زيف لا حقيقة له.

وقد أنكر الكرامة المعتزلة، وقالوا: لا يمكن أن تقع الكرامة، لأنه لو وقعت الكرامة لما أمكن التمييز بين النبي والولي، ولا بين الولي والساحر.

والجواب عن هذا سهل: أما التمييز بين النبي والولي فهذا أمر سهل، لأن الولي لا يدعي النبوة، بل هو لا يدعي ولا الولاية، الولي لله حقاً لا يدعي أنه ولي، لا يقول: أنا ولي من أولياء الله. بل إنه يزري على نفسه، ويذم نفسه ويصفها بالتقصير، ولا يدعي الولاية، ولهذا إذا رأيت من يدعي الولاية وأنه ولي وأبوه ولي وجده ولي وأنهم بيت ولاية، فاعلم أنه كاذب، لأن الولي حقاً يخشى على نفسه ويتهم نفسه بالتقصير، فهذا المقام الأول الذي هو التباس النبي بالولي، فالولي لا يدعي النبوة.

أما أن يلتبس الولي بالساحر فهذا أشد بعداً، لأن بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بعد المشرقين، وكل إنسان عاقل يميز بين أولياء الرحمن وما يكون عليهم من السكينة والهدى والاتباع والإخلاص وبين أولياء الشيطان الذين ينافقون ويهجرون ويكذبون ويدعون الدعاوى العريضة، فلا يمكن أن يلتبس أبداً ساحر بولي، السحرة أهل كذب وبهتان وزور وطغيان يعرفهم الناس بفتنهم، ويتقون شرهم ويبغضونهم، فلا يمكن أن يلتبس هذا بهذا، ولا يجوز أن تُبطَل الولاية والكرامة بمثل هذه الشبهات العقلية.

والكرامة باقية في هذه الأمة، ولهذا يجعل الله تعالى في آخر الزمان كرامات للمهدي الذي يخرج في آخر الزمان، حتى إنه يحثي المال ولا يعده، ويفتح الله عليه، فالكرامة باقية، وما نسمعه يمنة ويسرة من الكرامات فإنه ممكن، فإن الله لا يفرغ هذه الأمة، ولا يدع أولياءه الذين يجاهدون في سبيله من مدهم بنصره وتمكينه، لكن يبقى أن كل دعوى تقال لا بد فيها من ثبوت السند، فليس لأي مدع أن يدعي شيئاً، أما إذا ثبت ذلك برواية الثقات فإنا نقبل ونُسلم، واعلموا أن كرامة كل ولي دليل على صدق النبي الذي اتبعه، لأنه إنما نال هذه الكرامة بسبب اتباعه للنبي، فهي تؤول إلى أن تكون من دلائل النبوة.